حجاجية بنية التفضيل في المناظرة -مقاربة تداولية-

Orbital structure of preference in the debate -deliberative approach -

عبد الغني تريكي *

تاريخ الإرسال: 2021/01/21	تاريخ القبول: 2021/05/20	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

تعد بنية التفضيل من المؤشرات الحجاجية في خطاب التناظر بل تكاد تعد جزءا من بناء هيكلتها في كثير من الأحيان من خلال تحريك الحوار وإحداث التأثير المطلوب في المتلقي. ويمكن اعتبار الشكل القضوي المناسب لبنية التفضيل؛ هو ذلك الذي يق ـد المتكلم تبليغه لإزالة اللبس والتخلص من الغموض، كون هذا الأخير مشكلةً لغويةً إن كان هذا على المستوى الإبيستمولوجي أو الأنطولوجي.

اشتمل هذا البحث على مقدمة توضح بنية التفضيل كونها مكونًا أساسيًا من مكونات الخطاب الحجاجي في المناظرة، كما رصد البحث بيان دلالة الإبهام وأهم التجاوزات الدلالية لهذه البنية، ولعل هذا التعدد في دلالاتها يؤدي إلى التوسيع في المعنى والتكثير له.

الكلمات المفتاحية: بنية، حجاج، مناظرة، التفضيل، التفضيل الاضطراري.

Abstract:

The structure of preference is one of the arguments indicators in the symmetry discourse, but it is almost part of the building of its structure in many cases by moving the dialogue and creating the desired effect on the recipient. An appropriate adjudicative form of preference structure may be

المؤلف المرسل: عبد الغني تريكي univeraghani38564@yahoo.fr

* جامعة خشلة univeraghani38564@yahoo.fr

considered It is that which the speaker intends to convey to remove ambiguity and get rid of ambiguity, since the latter is a linguistic problem, whether this is on the epistemological or ontological level.

This research included an introduction that clarifies the structure of preference as a basic component of the pilgrim discourse in the debate. The research also monitored the indication of the thumb and the most important semantic overrides of this structure, and perhaps this multiplicity of its connotations leads to an expansion of meaning and a proliferation of it.

Key words: structure, pilgrimage, debate, preference, forced preference.

مقدمة

تعدّ بنية التفضيل من الأنماط التركيبية في اللغة العربية، فهي عن ◻ر لغوي فعال يؤشر عن معنى المنطوق في الجملة، وهذا العن ◻ر اللغوي يسهم في توليد مجموعة من الطاقات الحجاجية ليبلغ المتكلم مقاصده، فلا يمكن أن يلغى دوره الحجاجي في أيّ خطاب، إذ يستعين به المحاجج لتقوية حجته واستدراج المخاطب نحو قبول الأمر المعروض عليه، فيخلق على هذا الأساس مقتضى من الـ ◻عب دحضه، فتغدو بذلك بنية التفضيل من البنيات ذات المقاصد التداولية ومكونا من مكونات الحجاج الوظيفية. يقول **باتريك شارودو**: "الحجاج حاصل نصّيّ عن توليف بين مكونات مختلفة تتعلق بمقام ذي هدفٍ إقناعيٍ".[1] وغاية هذه المكونات هي توضيح بلاغتها في الكلام وتأكيدها.

مفهوم بنية التفضيل

تعتبر صيغة التفضيل من الـ ◻يغ الاشتقاقية المانحة لمعنى تدل على المفاضلة والترجيح بين شيئين اشتركا في صفة من الـ ◻فات وزاد أحدهما على الآخر في تلك الـ ◻فة؛ أي أنّ المحتوى القضوي للتفضيل هو المشاركة في المعنى الواقع فيه التفضيل، إذ يستعمل المتكلم هذه الـ ◻يغة لإنجاز التأثير الأقوى على المخاطب، ومناظرة النعمان بن المنذر لكسرى ملك الفرس خير دليل على ذلك. فبعدما افتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم قال كسرى وقد أخذته العزة بالملك:

"لم أرَ للعرب شيئا من خ ◻ال الخير في أمر دينٍ ولا دنيا، ولا حزمٍ ولا قوةٍ... فأفضل طعامٍ ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف

دائها... قال النعمان: إنَ أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها، فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحومَا، وأطيبها لحومَا وأرقها ألبانا، وأقلها غائلة، وأحلاها مضغة، وإنه لا شيءَ من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه..." .[2]

في هذا المقطع حافظ التفضيل على خ وصيته الإقناعية، إذ تم تقسيم الكلام وفقه في عبارات منسجمة:

فضائل إبل العرب:
- ح- أكثر البهائم شحوما.
- ح- أطيبها لحوما.
- ح- أرقها ألبانا.
- ح- أقلها غائلة.
- ح- أحلاها مضغة.

حيث سعى المخاطِب إلى إقناع المتلقي بفضائل الإبل التي لم تكن مفضلة عنده، فأسهم التفضيل في خلق مقتضى في ذهن ملك الفرس ودفعه إلى الاعتراف بالأمر وإعجابه الشديد بإجابة النعمان. وتراكمُ حججِ التفضيل دون مراعاة لمبدأ التدرج من الأقوى إلى الأضعف أو العكس جعل من كل حجة حقيقة ثابتة لا ترد، وأن تكون أقوى وأكثر فعالية في زمن التلفظ بها، وتوظيف التفضيل حجاجًا هو تمثيل للإقناع وتفويت فرصة الاعتراض من طرف متلقي الخطاب؛ إذ من شأنه أن يغلق المنافذ أمام حجاج مضاد، وأن يقطع الطريق أمام المخاطَب المشاكّ أو المتردّد.

وسنوضح فيها يلي أهم دلالات صيغة التفضيل في المناظرة والتجاوزات التداولية عند الخروج على أصالتها الدلالية:

دلالة الإبهام في التفضيل

يوقع الإبهام -في كثير من الأحيان- السامع في حيرة وتفكر واستعظام، والمُبْهَمُ هو الشّيء الغامض الّذي لا تتّضح دلالته إلاّ بعد تفسيره، وهو يعين المفسِّر على التّرجيح، وعلى هذا يكون المبهم من اللّفظ ما لا يدلّ مستقلا على معنى، لذا افتقر على الدّوام إلى شيء يوضحه، ويزيل إبهامه، فعند قولنا: جاءني الّذي، فاسم الموصول غامض المعنى مبهم

الدلالة، ولم يدل على معيّن؛ لذا وجبت الـ ـلة فتلازمه لتوضيح مدلوله، وإذا قلنا: عمرو أفضل. فإنّ اسم التفضيل وحده ناقص الدّلالة، ولا يفهم معناه إلا بضمّ ما بعده إليه. لذا لزمته المفضّل عليه لبيان المراد منه.

وانطلاقا من هذا، كان الإبهام في اسم التفضيل محتاجا إلى مرجع يفسره ويوضح معناه، ولا يدخل الإبهام على صيغة التفضيل إلا إذا وردت مفسرة بتمييز يوضحها ويبين المراد منها. ومثال ذلك ما جرى في سقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنـ ـار ليختاروا خليفة رسول الله ﷺ بعد وفاته، فقال الخباب بن المنذر: "منّا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر الـ ـديق –ﷺ-: نحن المهاجرون أوّل النّاس إسلامًا وأكرمُهم أحسابًا وأوسطُهم دارًا وأحسنُهم وجوهًا، وأنتم إخواننا في الإسلام وشركاؤنا في الدّين، نـ ـرتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرًا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش...".[3]

والملاحظ أن الـ ـيغ (أوّل، أكرم، أوسـ ـ، أحسن) لم يعرف المراد منها في بادئ الأمر؛ إذ كانت مبهمة على المخاطَب، فلا يعرف نحن المهاجرين أوّل الناس من حيث ماذا؟ وأكرمهم في أي شيء؟ وأسطهم من أيّ ناحية؟ وكذا الحال في (أحسن) فلا يدري في أي شيء وقع هذا الحسن؟ وعموما فقد احتوت هذه الـ ـيغ على معانٍ مختلفةٍ، وهي حجج لا تعدّ أكثر من قرائن ترجّح كفّة المهاجرين بميزان الأفضليّة وأحقيتهم في الخلافة، فهم أوّل من شهد الإسلام والسابقين له، كما كانت لهم ولاية مخـ ـوصة وهي خدمة الكعبة، فلا يفتحها إلا الأشراف منهم، ومكة هي مركز التّجارة وطريق عبور القوافل الوافدة من كلّ مكان، كما تمتاز قريش بأنّها من أشرف القبائل لتميُّز أهلها بمكارم الأخلاق، وكلّ هذه المعاني جاءت على الأقوال التالية:

نحن المهاجرون	– أوّل النّاس إسلامًا. - أوسطهم دارًا. - أحسنهم وجوهًا. - أكرمهم أحسابًا.

والّتي تمثّل في هذا المقام حجّة السّلطة بتفضيل المهاجرين عن غيرهم ولو كانوا من أن ار الرسول ﷺ، فيـ بح كلام أبي بكر بمقتضاها حججا ترسّخ في ذهن المخاطَب (الأن ار) أفضليّة المهاجرين، والمفاضلة هنا تؤول في النّهاية إلى إظهار الأحقيّة في تولّي الخلافة.

لقد مكنت حجج التفضيل بنقل المحتوى القضوي إلى متلقٍ متردّد بحاجة إلى بلوغ اليقين والإقناع بما عرض عليه، ورغم أنّ لكلّ حجّة معنى مستقلّ إلاّ أنّ كلاًّ منها مدعّما للآخر، فلم تخرج عن مقتضى الحال.

ولكون التفضيل حجّةً قاطعةً على بيان المراد، فإنّ استحضاره في سياق المناظرة جاء لتعزيز تلك الحجّة وتوضيح مقاصدها تداوليا، فالافتخار بالذّات –وإن كان من غير قـ ـد- يتضمن تهميش الآخر في لحظة التّلفظ بالقول ودون أن يغمـ أبو بكر حقَّ الأن ار على اعتبارهم أن ارَ رسول الله والفئة المؤيّدة له بعد المهاجرين، فقد هدّأ من روعهم بقوله: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء) مما أحدث قدرة تأثيرية في نفوسهم. وتكرار أفعل التفضيل هنا وفّر طاقةً حجاجيةً مضافة تحدث أثرا في المتلقي.

وإذا كانت الغاية من صيغ التفضيل من حيث منطوقُها، تقوية الرأي وتعزيزه، فإنّ الأمر يزداد عمقا عندما تغدو دلالتها على الإبهام، حيث يبتغي صاحب الخطاب سير المخاطَب في مجالها.

واللاّفت أنّ دلالة الإبهام ترافق صيغة (أفعل) التفضيل في هيئاتها الثلاث: (أفعل من) و(أفعل المضافة إلى ما بعدها) و(الأفعل) على نحو:

- أقول أنه أعظم منك جرما.[4]

- مع أنها أكثر البهائم شحوما.[5]

شريطة أن تحتاج هذه البنية إلى تميّيز يوضّح دلالتها، فإنْ تجرّد لم يكن التميّيز منـ ـوبا، فإنّ الكلام لا يعدو أن يكون في مقام السّرد، لأنّ نـ ـبَ التمّييز "يكون لغرض الإبهام أولا، ليكون أوقعَ في النّفس لأنّه تتشوف النفس إلى معرفة ما أبهِم عليها وأيضا إذا فسرته بعد الإبهام فقد ذكرته إجمالا وتفضيلا".[6]

ونسوق في هذا السّياق مثالا آخر لدلالة التفضيل على الإبهام، حيث يضطلع التفضيل في المناظرة بوظيفة إقناعية. لما خرج حرقوص بن زهير في وجه علي -ﷺ- قال: والله ما نريد بقتالك إلاّ وجه الله والنّجاة في الآخرة. فتلا عليه –ﷺ- قوله تعالى: "قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا".[7]

إنّ الحجّة الّتي استشهد بها الإمام علي –ﷺ- هي حجّة الشّاهد القرآنيّ، وهي من الحجج المؤسسة لبنية الواقع الّتي يستعين بها المتكلم من أجل دعم قضيته والدّفاع عنها، فهي تهدف إلى "تقوية حضور الحجة بجعل القاعدة المجردة ملموسة بواسطة الحالة الخاصة التي يستشهد بها عليها".[8] إذ تنطوي هذه الحجة على طاقة تأثيرية إقناعية يذعن لها المخاطَب؛ كونها سلطةً عُليا يخضع لسلطانها، المعتقد بها، ويتفاعل معها.

ما يلاحظ أنّ كلمة (الأخسرين) قد وردت مبهمة، وقوله (أعمالاً) تمييز مفسّر لجملة مبهمة، فجيء به لدفع ذلك الإبهام، ثم بيان مراده ليتمكن في نفس المخاطب وهو الخسران المطلق، فهؤلاء الخوارج خسارتهم واقعة في عملهم وأعمالهم باطلة بسبب خروجهم عن الدّين ولفساد اعتقادهم، واللاّفت أنّ التميّيز (أعمالاً) ورد على صيغة الجمع لمشاكلته المميّز (الأخسرين)، ولم يقل (عملاً) جريا على الأصل، لأن "الأصل في التمييز هو الإفراد".[9]

وابتداء الآية بفعل إنجازي (قُلْ) للاهتمام بالمقول من حيث عملية الإصغاء وتنبيه المخاطَب، لأنّ مثل هذا الافتتاح يشعر بأنّه في غرض مهمّ، وتفاعل القوتين الإنجازيتين (الأمر والاستفهام) يُخرِجُ الاستفهام إلى فعل إنجازي ضمني وهو العرض، لأنّه بمعنى (أتحبّون أن ننبئكم بالأخسرين أعمالا؟ وهو عرض غرضه التّهكم، فضلاً على أنّ عليّا – رضيّ الله عنه- قد وجّه المقول المستشهد به للخوارج، موبّخًا لهم ومنبّهًا على ما غفلوا عنه من خيبة سعيهم بخروجهم عليه، فكانت خسارتهم مطلقة لا تعويض لها، ولولا وظيفة التميّيز (أعمالاً) لكانت أفعل التفضيل غامضةَ الدلالة، فقد أزاح التميّيز الغموض الدّلالي بإخراج التّفضيل من الإبهام إلى الوّضوح.

التّجاوز الدّلالي لأفعل التّفضيل

لا ريبَ أنّ دلالة التّفضيل هي تفضيل شيءٍ على آخرَ في أصل الوصف المشترك، يدل على المفاضلة بين شيئين في معنى من المعاني، وبيان زيادة أحدهما فيه على الآخر، وقد يرد استعمال اسم التفضيل غير مراد منه معناه الأصلي ليؤديَ معنى غير التفضيل كالـ ـفة المشبّهة واسم الفاعل والمبالغة.

أ- دلالة أفعل التفضيل على غير التفضيل

قد تدلّ صيغة التفضيل على غير التفضيل متجاوزة دلالتها الأصليّة المعروفة وهي (المفاضلة)، دلالة ظاهرة يعطيها المعنى الظاهر، ودلالة باطنة يـ ـل بها المخاطِب إلى غرض مقـ ـود، ومن ثم يعقل المخاطَب ذلك المعنى، وفي الدّلالة الضمنيّة اتساع في المعنى. قد تحقق الإقناع والاقتناع بما يعرض من حجج، فتتغير أفعال وسلوكات المخاطَبين، وقد لا تتغير معتقداتهم وقناعاتهم لعدم إظهار المخاطِب لسلطته في القضية المعروضة.

وتعد صيغة أفعل التفضيل من بين الـ ـيغ النحوية خروجا عن قواعد النحاة وأقيّستهم، ونرصد في هذا المقام جملة من النماذج للتدليل على حضورها داخل المناظرة، ومن ذلك قول الأحنف بن قيس لمعاوية بن أبي سفيان، حيث شاوره هذا الأخير في استخلاف ابنه يزيد فسكت عنه، " فقال معاوية: ما لك لا تقول؟ فقال الأحنف: إنْ صدّقناك أسخطناك، وإن كذبناك أسخطنا الله، فسخـ ـ أمير المؤمنين أهونُ علينا من سخـ ـ الله. فقال له معاوية: صدقت".[10]

إنّ ملفوظ (أهون علينا) مؤشرٌ على أنّ المتكلم أوردها في كلامه دون أن يوحي بها دلالة التفضيل أو المشاركة بين شيئين، وهي نوع من المفارقة بين القاعدة والاستعمال أو لنقل بين ظاهر اللفظ ومعناه، حيث أنّ اقتضاء اللغة حين تدل صيغة أفعل التفضيل على التفضيل، وبمقتضى السّياق تستعمل الـ ـيغة فيما لا تفضيل فيه، ومنه قولهم: (قاتله الله ما أشعره)، فهم يقولون باللفظ ولا يريدون وقوعه.

وعلى الرّغم من إمكان تأويل (أهون علينا) بأنّه ليس أفعل التفضيل، بل المعنى (هيّن علينا)، إذ أنّ سياق الكلام في المناظرة يقوّي إرادة التّفضيل في استعمال هذا اللّفظ، فهو بـ ـدد بيان سخـ ـ أمير المؤمنين أسهل وأيسر من سخـ ـ الله. فقد استعملت صيغة

(أهون) ولا يراد لازم معناها، والأمر نفسه ينطبق على عبارة (الله أكبر)، ومعناها الله أكبر من كل شيء، فحذفت (من) لأن (أكبر) بمعنى كبير، و(أفعل) في المناظرة السابقة ليست على التفضيل، بل على أنّها صفة مشبّهة. وقد ورد في (الكافيّة) أنّه: "يجوز استعمال أفعل عاريًّا عن اللاّم والإضافة ومن، مجردا عن معنى التفضيل مؤوّلا باسم الفاعل أو الـ ـّفة المشبّهة، ودليل ذلك ما ورد في القرآن الكريم (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ) و(هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) وتقديرهم في ذلك: هو عالمٌ بكم، وهو هيّن عليه".[11]

وتقدير قوله تعالى (هو أهون عليه)؛[12] أي هيّن على الله وليست للمفاضلة. فكل شيء على الله سهل يسير والمشاركة في التفضيل لم تكن حقيقية، لأنّ المشاركة هي إحدى الدّعائم الّتي يقوم عليها أفعل التّفضيل، وقد وردت هنا مجرّدة من هذا الرّكن.

أما قوله تعالى «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ»[13] فهي على سبيل التأويل أيضا، فالعلم لله مطلقا خاليًّا من المشاركة له من غيره في علمه، فالمفاضلة بين الله عز وجل والبشر لا تجوز، وكان القـ ـّد من الملفوظ هو اسم الفاعل، والتّقدير: ربكم عالم بكم، وليس ورود أفعل التفضيل بمعنى المفاضلة، ودليل ذلك في المناظرات كثير، ومنها:

- إنَّ فيهم لمن هو أعلم منّي[14] ← إنّ فيهم لمن هو عالم منّي.
- هم أعلم بتأويله منهم[15] ← هم عالمون بتأويله منهم.
- بل أمي أعلم باسمي منك[16] ← بل أمي عالمة باسمي منك.
- أنت أعلم بزيد في ليله ونهاره[17] ←أنت عالم بزيد في ليله ونهاره.
- اختاروا أعلمكم لأناظره[18] ←اختاروا عالمكم لأناظره.
- إنَّ عليًّا أعلمُ بالله منكم[19] ← إنَّ عليًّا عالمٌ بالله منكم.
- أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا[20] ـ عالمنا وابن عالمنا.

وأحسب أنّ صيغة التفضيل في الأقوال السابقة، جاءت على معنيين؛ معنى حرفيّ يبقى التفضيل على دلالته الأصلية، ومعنى مستلزم من الحرفي ليدلّ ضمنيا على زيادة الشّيء على غيره فهي تعطي دلالة أقوى مما يعطيه مجرد التفضيل.

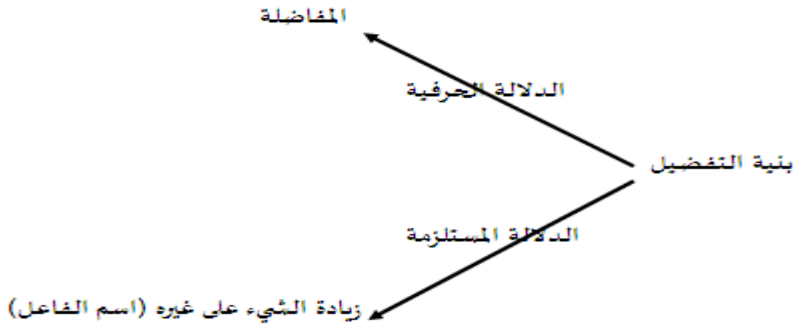

وبنية التفضيل إذا دلّت على اسم الفاعل إنّما هي مجرد ثبوت الوصف في الموصوف من غير نظر إلى المفاضلة.

وقد ترد صيغة التفضيل أيضا مسلوبة المفاضلة تخرج لمعنى المبالغة من ذلك قولنا: الله أكبر وأعلى وأجل، كقول الرسول ﷺ لمّا قال له أبو سفيان بن حرب: أُعْلُ هبل، فقال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب قل: الله أعلى وأجل.[21] فالقول (أعلُ هبل) دلّ على فعل إنجازي متمثل في أمر المخاطَب بالإقرار والاعتراف بعلو هبل، مفتخرا بآلهته، والمعنى أنّ هبل أعلى من كل شيء، أما ردّ المخاطَب فقد كان أقوى، فليسن هناك مماثلة بين الله عز وجل والأصنام، فدلّ الملفوظ أعلى وأجلّ على المبالغة، فالله أعظم في عطائه وأعلى من أن تدركه العقول.

ومن أمثلة بنية التفضيل الدّالة على المبالغة، أنّه لما دخل إيّاس بن معاوية الشام، وهو غلام، فقال له القاضي: يا غلام، أَمَا تستحي تقدّم شيخا كبيرا؟ قال إيّاس: الحق أكبر منه، قال القاضي: أسكت، قال: فمن ينطق بحجتي إذا سكت؟ قال: ما أحسبك

تقول حقًّا حتّى تقوم من مجلسي. قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، قال: ما أظنّك إلاّ ظالمًا، قال: ما على ظنُّ القاضي خرجت من منزلي.[22]

كشفت ملفوظات (الاستفهام، الأمر، النفي) قوى إنجازية صادرة من متكلم ينتقل انتقالا منطقيًّا من حجة لأخرى قـ ـد تحقيق ما يذهب إليه وهو إنكاره على الغلام أن يقاضيَ شيخا كبيرا.

ح1- أما تستحي تقدّم شيخا كبيرا؟

ح2- ما أحسبك تقول حقا حتى تقوم من مجلسي.

ح3- ما أظنّك إلا ظالما.

حيت ترسم حجج السّلطة مسارا تأويليا قد التأثير في المخاطَب وإقناعه بعدم صحة الدعوى المعروضة من طرفه، حيث أضحت الملفوظات الإنجازية السابقة وسيلة استدراج، فكان القد الضّمني من السؤال هو إنكار فعل المخاطب على ما أقدم عليه مدعما لهذه الحجة بعامل النفي الذي يراد به نقض ما ادّعاه المسؤول بحق الشيخ المسنّ، ودعمّ ذلك أيضا بعامل حجاجي ماثلا في أسلوب القر (ما + إلاّ) باعتباره عنرا لسانيا محضًا يخرج الملفوظ من الإبلاغية إلى الحجاجية غايته الأساسية هي التّضييق على المخاطب.

أمام كل هذه الحجج المعروضة التي لم تنل من قناعة المخاطَب، فقد استحضر هذا الأخير صيغة لغوية لها بعد حجاجي وهو إقناع الطرف الآخر (القاضي) وحمله على الاقتناع وهذه الصيغة هي التفضيل، لأنَّ في توظيف (أفعل التفضيل) لم يكن الهدف من حضورها المشاركة والمفاضلة وإنّما المبالغة والزيادة في معنى الشيء، فلا وجود للمفاضلة بين الحق والشّيخ في الملفوظ (الحق أكبر منه)، فهذا التفضيل في غير بابه وقد انسلخ عن معنى المفاضلة، وتأويلة: كَبِيرٌ، وأفعل التفضيل (أكبر) جيء به للمبالغة في الكبر وليس على بابه.

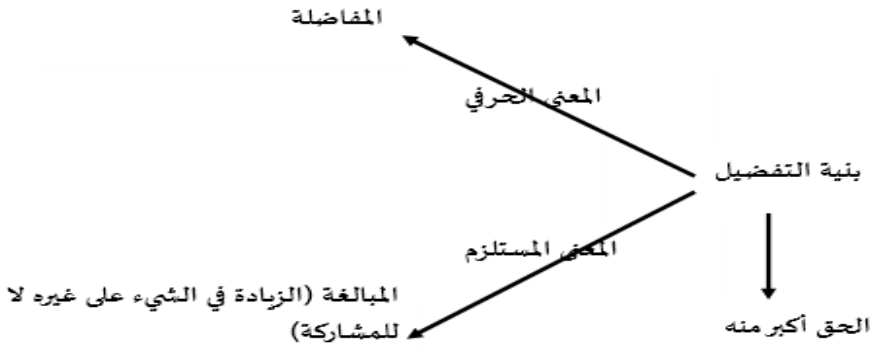

وتكمن الخاصية الحجاجية للتفضيل في هذا الموضع في رفض التعدد والكثرة، فالحق

وحده يعلو ولا يعلى عليه، فهو أكبر من أيّ كان، وفي هذا الملفوظ الحجاجي دعوة المخاطِب (القاضي) إلى الالتزام وحثّه على مقاضاة الشيخ، واستثمار هذه البنية تمكّن المحاجّ من إي ال فهمه إلى المخاطِب، وبلوغ التأثير المق ود ولإثبات بطلان حجج المخاطِب.

وفي سياق انسلاخ بنية التفضيل عن دلالتها الأصلية لتدل عن وصف مشتق وعدم الاشتراك بين المفضّل والمفضّل عليه. "لمّا قدم اليهودي كعب بن الأشرف إلى مشركي قريش بمكة، قال له المشركون: أحكم بيننا وبين هذا ال نبور الأبتر، فأنت سيّدنا وسيّد قومك! فقال كعب: أنتم والله خير منه".[23]

فاسم التفضيل (الأبتر) عاريا عن معنى التفضيل، وهو على الوصف (اسم مفعول) بمعنى المبتور، ومراد قريش بقولهم ال نبور أي: "لأنّه إذا قُلع انقطع ذكره، والأبتر هو الذي لا عقب له، أي؛ ليس له ولد".[24]

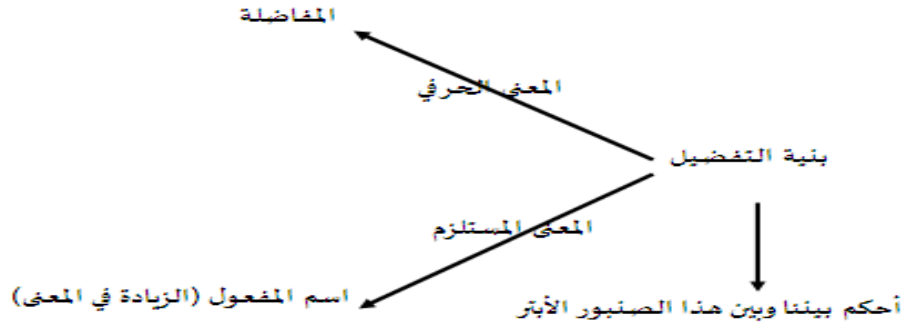

فقد أتت هذه ال يغة خارجة عن المشاركة بين اثنين على سبيل التأويل، مق ودا بها معنى الزيادة. أما بنية (خيرٌ) فقد دلّت على مفاضلة حقيقية.

ويمكننا القول ان في كثير من المناظرات صيغ التفضيل لا يراد بها دوما معنى التفضيل، إنما تخرج في بعض الأحيان للدلالة على معنى آخر مستلزم يحدده السياق على غرار ما نجده في خروج همزة الاستفهام إلى معانٍ أخرى كالتّسوية مثلا، أو انسلاخ حروف الجر من معناها الأصلي لتعبر عن معانٍ مختلفة.

ب- دلالة أفعل على التقابل

قد تدلّ أفعال التفضيل على المطابقة بين شيئين، فيجمع المخاطَب ضدين في تركيب واحد، ومثاله ما دار بين معاوية بن أبي سفيان وشريك الحارثي.

دخل شريك على معاوية فسلّم عليه بالإمارة، وكان شريك قـ ـيرا، فقال له معاوية: ما أنت ويحك!؟ قال: أنا من لا تنكره، ولا تجهله، أنا شريك الحارثي. فقال له معاوية: إنّك لشريك، والله ما له من شريك، وإنّك لأعور، والصحيح خيرٌ من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال شريك: يا معاوية، إنّك لمعاوية، وما معاوية إلاّ كلبة عوت واستعوت، وإنّك لابن صخر، والسهل خيرٌ من الصخر، وإنّك ابن حرب، والسّلم خير من الحرب، وإنّك ابن أمية، وما أمية إلاّ أمّة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين؟[25]

إذ حـ ـل التقابل بين جملة من الملفوظات، ولا شكَّ أنَّ الإدراك الظاهر لبنية التفضيل (خيرٌ) يدلّ على وجود تنافي بين (الصحيح، الأعور) و(السهل، الصخر) و(الحرب، السلم) وإيراد التفاضل على نسق تقابلي يزيد من القوّة الحجاجيّة لبنية التفضيل ويوحي بالتباعد أكثر من النقيضين.

تبدأ المناظرة بالملفوظ (ما أنت ويحك) دالا على إظهار الشفقة للمخاطَب ولفظة (ويحك) تقال لمن تنزل به بليّة والدعاء له بالتخلص منها، وهذا ما اتّـ ـلف به (شريك)، فقد كان دميم الخلق، قـ ـير القامة، ليضاعف المخاطِب من حدّة خطابه ويستدعي عبارات محددة القـ ـد تحمل طاقة تأثيرية باعتمادها على بنية التفضيل في سياق حجة المقارنة، فالقول: (وإنّك لأعور والصحيح خيرٌ من الأعور) تحمل دلالات شخص مرذول الـ ـفات والأعمال قوامها السّلب والحـ ـ منها في مقابل ما يتّـ ـلف به الشّخص من صفات وأعمال قوامها الإيجاب، ولا يخفى لِما لهذه المقارنة من أثر حجاجيّ على المخاطَب. والحال ينطبق على الدعوى المعارضة من المسؤول الذي أصبح سائلا مقدمًا كل حجج التعريض بقوله:

إنك لابن صخر، والسهل خيرٌ من الصخر.

إنك ابن حرب، والسلم خيٌر من الحرب.

إنّ هذا النوع من التقابل يحمل بين طيّاته نوعًا من التّوجيه، ودعوة صريحة من المحاجج في الحـ ـّ من منزلة المسؤول، وفي ذلك استـ ـغار لمعاوية ورأيه، وازدراء بقوله وعقله ونسبه، وهذا الرسم يبين هذا النوع من التقابل في بنية التفضيل:

أوصاف شريك الحارثي	بقابله	أوصاف معاوية بن أبي سفيان.
إنك شريك والله ما له من شريك.		إنك صخر والسهل خير من الصخر.
إنك الأعور والصحيح خير من الأعور.		إنك ابن حرب والسلم خير من الحرب.
كيف سدت قومك.		كيف صرت أمير المؤمنين.

إنَّ طبيعة إيراد بنية التفضيل في مقام التقابل إنّما كانت بحسب سياق المحاجّة، وطبيعة المتنازعين كونهما خـ ـمين غايتهما التعريض والإنقاص، ذلك أنَّ شريكا كان من أصحاب (علي) وعليٌّ خـ ـمٌ لمعاوية وكان هذا الأخير ينادي بأخذ الثأر من قتلة خليفة المسلمين عثمان بن عفان ﷺ، وبقي الـ ـراع بينهما حتى نهاية خلافة الإمام علي ﷺ بمقتله.

ولابدَّ من الإشارة إلى أثر التنغيم في توجيه وظيفة بنية التفضيل تقويةً وإضعافًا، حيث يكون المتكلم في مقام يتطلب منه أن يغيّر من وظيفة التركيب المؤشّر له بعوامل حجاجيّة على غرار التّوكيد والنّفي والإثبات للدّلالة على معنى معيّن، حيث تساند هذه العوامل بنية التفضيل في تعزيز حجّة المخاطِب ولا تدع مجالا للمخاطبَ إلاّ بالإقرار والتسليم.

والملاحظ أن تغيّر النّغمة يتبعه تغيّر في الدّلالة، ويضفي على الملفوظات معانٍ إضافية تفهم من السّياق الّذي يحيـ ـ بها فملفوظات:

إنك لأعور، والصحيح خيرٌ من الأعور.

إنك لابن صخر، والسهل خيرٌ من الصخر.

إنك ابن حرب، والسلم خيرٌ من الحرب.

هي جملٌ خبريةٌ مؤكدة بالأدوات (إنَّ + اللاّم) يتميّز فيها التنغيم بالهبوط وهو الذي يتلاءم مع التحقير، أما الاستفهام فقد جاء حينما كانت نغمة الأداء صاعدة لتؤدي إلى

إيـ ⍰ـال معنى التعجب من شريك كيف ساد قومه (فكيف سدت قومك؟) ومن معاوية كيف تقلّد الإمارة (كيف صرت أمير المؤمنين؟). أما صيغة التفضيل (خيرٌ) فجاءت متبوعة بـ(من) وبالمفضّل عليه مؤسسة بذلك مقارنة:

الصحيح خير من الأعور السهل خيرٌ من الصخر السلم خير من الحرب	تفضيل التقارب والمقارنة ومعادلته: مف$_1$ < مف$_2$

حيث يشير الرمز (مف) إلى الملفوظ.

ج- دلالة أفعل على التفضيل الاضطراري

قد يرسم التفضيل مسارا تأويليا فيخرج فيه المفضّل من نطاق المفاضلة الحقيقيّة إلى مجال المفاضلة الاضطراريّة الّتي لابدّ منها، فيقيد المخاطِب المخاطَب بين شيئين يقتضي الأخذ بأحدهما وترك الآخر، وهذا البعد التفاضلي الاضطراري يكسب الخطاب التناظري بعدا حجاجيا أعمق من عدم وجوده، فهو يوجّه دلالة الملفوظ وجهة محددة واختيارية في الآن نفسه، ومن صور ذلك داخل المناظرات أنّه لما سأل أبو سفيان والمشركون كعب بن الأشرف: "أديننا أَحَبُّ إليك أم دينُ محمدٍ وأصحابه؟ وأيُّ الفريقين أهدى سبيلا؟ فقال: أنتم أهدى منهم وأفضل".[26]

إنَّ ممّا يلفت النّظر في هذا المقطع أنَّ جواب ابن الأشرف كان تفضيلا اضطراريا، بأن اختار أحد طرفي المفاضلة، فنلحظ التفضيل في إجابة المخاطَب ناشئ من تقييد المخاطِب بين أمرين، المفضَّل (دين المشركين) والمفضَّل عليه (دين محمد وأصحابه)، فما كان من هذا اليهودي إلا أن اختار دين المشركين بقوله (أنتم أهدى وأفضل) وهذا الجواب ينم عن عداء ابن الأشرف للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، حيث كان يمدح عدوّهم ويحرّضهم عليهم وجعل ينشد أشعاره يبكي فيها أصحاب القليب من قتلى المشركين ويذكي حقدهم على النّبيّ صلوات الله عليه ويدعوهم إلى حربه.

وفي صورة أخرى من صور التفضيل الاضطراري ما دار بين أم ربيعة الرأي وزوجها بعد أن غادر هذا الأخير المدينة مجاهدا في سبيل الله تاركا لها مالا وفيرا، لها ولوليدها كانت قد

أنفقته كله على معلميّ ولدها ومؤدبيه، فكانت كلّما رأته يزداد علمًا، تزيدهم برًّا وإكرامًا، فلما عاد من الجهاد في سبيل الله سأل امرأته عن المال المتروك لها ولوليدها الذي صار محدِّث المدينة وفقيهها وإمامها على الرّغم من حداثة سنّه، فقالت له: أيُّهما أَحَبُّ إليك، ثلاثون ألف دينار أم هذا الذي بلغه ولدك من العلم والشّرف؟ فقال زوجها (وكان اسمه فروخ): بل والله هذا أَحَبُّ إليَّ وآثر عندي من مال الدنيا كلِّه. فقالت: لقد أنفقتُ ما تركتَه عندي عليه، فهل طابت نفسك بما فعلت؟ فقال: نعم.[27]

إن التفضيل بالمحبة في ملفوظ (هذا أحبُّ إليَّ وآثر) كان تفضيلا اضطراريا، فهو يقيّد المخاطَب بين أمرين ملزمين، ووجوب الأخذ بأحدهما دون الآخر.

وفي الخطاب السابق تحقق منظور **غرايس** في احترام مبادئ التحاور بين طرفي الحوار من خلال مبدأ التعاون، حيث يرى **غرايس** أن هذا المبدأ يرتكز على المرسل للتعبير عن قـ ـلده مع ضمانة قدرة المرسّل إليه على تأويله وفهمه.[28] وهذا المبدأ تتفرع عنه أربع قواعد أساسية ماثلة في: (الكم، الكيف، المناسبة، الطريقة)، وهي قواعد خاصة بقواعد الاستلزام الحواري الذي يعدّ واحدا من أهم الجوانب في الدرس التداولي، وهذا الاستلزام يتمثل في ضبـ ـمسار التناظر الذي يؤدي إلى بلوغ المقاصد والغايات التي يبتغيها المرسل للتأثير في المرسل إليه. وفيما يلي بيان لقواعد مبدأ التعاون في الحوار السابق:

إن مقام المخاطَب أعلى من مقام المتكلم كونه يمثل رب الأسرة (الزوج) والسؤال الموجّه إليه يفيد التقرير والاعتراف بأيّ الأمرين أحبّ عنده، والجواب عن السؤال فيه بيان الأفضلية، وهو أنّ ما وصل إليه ولده كان أحبّ إليه من الدنيا وما فيها. وبالنظر إلى مبدأ الكم الذي يفرض على المتكلم أن يوازن في كلامه بين كم المعلومات وكم الملفوظات التي تحتويها، يتبين أن السؤال مُحَدَّدٌ لا يحمل أيّ تأويلات، فكانت الإجابة عنه تحمل مقدار الفائدة المطلوبة التي ينتظرها المخاطِب ولم تتجاوز الحد المطلوب فطابقت الجملة قاعدة الكم، حيث يشير هذا المبدأ إلى القول: "اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه".[29]

أما مبدأ الكيف فقد وظّف المخاطِب فعل الطلب وهو السؤال المؤشّر بالأداة (أيٌّ) الدالة على اختيار أحد الأمرين، فطابقت الإجابة قاعدة الكيف التي ارتبطت بمدى فهم المخاطِب للمعلومة عندما اختار محبّة ولده وما وصل إليه من المنزلة الرفيعة وتفضيله على المال، ويشير هذا المبدأ إلى القول: "لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه".[30]

ومبدأ المناسبة، حيث يلزم هذا المبدأ المتكلم أن يكون كلامه مناسبا لمراتب التلفظ، فمقام السؤال واضح من أم ربيعة وهو أفضلية ما وصل إليه ولدها (ربيعة الرّأي) على المبلغ المنفق في تعليمه، ومقام المخاطَب جليّ من حيث جوابه من دلالة تفضيل ولده عن المال، ويشير هذا المبدأ إلى القول: "اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع".[31]

والمبدأ الرابع يتمثل في الـ ـيغة/الطريقة، وغايتها الإيضاح والإيجاز، دون أن تشكل أيّ نفور إلى من يتوجه إليه الخطاب، حيث يكون المخاطِب على قابلية تلقي الخطاب بـ ـورة واضحة ومرتبة. فقد كان خطاب أم ربيعة منسجما ومتطابقا مع الـ ـيغة، فالسؤال: أيّهما أحبّ إليك ثلاثون ألف دينار أم هذا الذي بلغه ولدك من العلم والشرف؟ يحتوي على كامل أوصاف الوضوح وعدم اللّبس والإيجاز والتنظيم، حيث سعى المخاطِب إلى توضيح أفضلية مكانة الولد وما وصل إليه من العلم والشرف على المال المنفق في سبيله، فجاءت العبارات محددة تحمل دلالات إيجابية فيشير بذلك هذا المبدأ إلى: "كن واضحا ومحددا؛ فتجنب الغموض، وتجنب اللبس وأوجز ورتب كلامك".[32]

الخاتمة

إنّ بنية التفضيل استعملت كثيرا في خطاب المناظرة لعرض حجج كل طرف من الأطراف المتنازعة لإثبات الدعوى، فضلا على أن التفضيل يتبادل ذكر محاسن شيء أو مساوئه حيث يستعين به المحاجج لإقناع خ ـمه وحمله على الإذعان. كما أن بلاغة المناظرة منشؤها التنويع في الـ ـيغ يحددها السياق، إضافة إلى أن بنية التفضيل تحمل دلالات تقوم بوظيفة حجاجية كالإبهام. ومن حيثيات هذه البنية أنها تستعمل التفضيل حيث لا يريد التفضيل وهذا ما وضّحناه في مسألة التجاوزات الدلالية لأفعل التفضيل

حيث تؤدّي هذه البنية معنى غير التفضيل كاسم الفاعل واسم المفعول والصّفة المشبهة والتقابل وغيرها من التجاوزات...

الهوامش

1- باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب، تر: أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2009، ص16.

2- ابن عبد ربه، (أحمد بن محمد) العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، ج1، ص275-278.

3- المصدر نفسه، ج5، ص12.

4- أبو عمر محمد عبد الملك الزغبي، أصول المناظرة وروائع المناظرات، دار التقوى، القاهرة، ط1، 2011م، ص104.

5- المصدر نفسه، ج1، ص275-278.

6- الرضي الإستراباذي، شرح الكافية لابن الحاجب، تحقيق: حسن الحفظي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، مجلد 01، ط1، 1993، ص713.

7- سورة الكهف، الآيات 103-104.

8- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج (دراسات وتطبيقات)، مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط1، 2011م، ص55.

9- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط1، 2000م، ص329و335.

10- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1، ص56.

11- الرضي الإستراباذي، شرح الكافية، ص780.

12- سورة الروم، الآية 27.

13- سورة الإسراء، الآية 54.

14- أبو عمر محمد عبد الملك الزغبي، أصول المناظرة وروائع المناظرات، ص93. من مناظرة خالد بن يزيد بن معاوية مع الراهب.

15- المصدر نفسه، ص96. من مناظرة ابن عباس مع الخوارج.

16- المصدر نفسه، ص100. من مناظرة سعيد بن جبير مع الحجاج بن يوسف.

17- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج5، ص119. من مناظرة الأحنف بن قيس مع معاوية بن أبي سفيان.

18- أبو عمر محمد عبد الملك الزغبي، أصول المناظرة وروائع المناظرات، ص127. من مناظرة أبي حنيفة النعمان مع جمع من الناس القائلين بوجوب القراءة مع المأموم.

19- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، ص234. من مناظرة عبد الله بن خباب مع الخوارج.

20- أبو عمر محمد عبد الملك الزغبي، أصول المناظرة وروائع المناظرات، ص76. من مناظرة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود حول عبد الله بن سلام.
21- المباركفوري (صفي الدين)، الرحيق المختوم، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، (دط)، 1976م، ص253.
22- عبد الرحمن رأفت الباشا، صور من حياة التابعين، دار الأدب الاسلامي، القاهرة، ط15، 1997م، ص70.
23- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن، ج7، دار هجر للطباعة، ط1، 2003، ص143.
24- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مجلد 4، ص2505.
25- العباس بن بكر الضبي، أخبار الوافدين من الرجال من أهل البصرة والكوفة على معاوية بن أبي سفيان، تحقيق: سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1984م، ص36-37.
26- المباركفوي، الرحيق المختوم، ص219.
27- عبد الرحمن رأفت الباشا، صور من حياة التابعين، ص153-154.
28- عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليَّة ج2، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط2، 2015م، ص97.
29- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديد في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجديدة، م صر، 2002م، ص34.
30- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
31- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
32- المرجع نفسه والصفحة نفسها.